الفصل الخامس

انتقال أشكال الثقافة :

ذكرنا أن الثقافة وأشكالها تنتقل فى مصر من عصر الى عصر ٠ وكيف سعت مصر خلال تاريخها الطويل متطلعة الى الوحدانية والبحث عن الاله الواحد وكيف أن مصر أيضا بماضيها وتاريخها الطويل ونمو الثقافة فيها قد أصبحت حضارتها واحدة من أعظم حضارات العالم القديم ٠

ان الحضـــارات التى ازدهرت فوق أرض مصر على مر تاريخهـا الطويل قد تركت الكثير من آثارها المرئية والمجسده فى اشـــكال الفنون والعمارة وما بقى من مخلفات ترتبط بهذه الحضارات ٠ هذه الأشـــكال المرئية والمجسده تحفظ فى المتاحف ٠ ففى القاهرة وحدها ثلاثة من أهم المتاحف فى العالم وهي المتحف المصرى والمتحف القبطى والمتحف الاسلامى ولا يقتصر حفظ التراث فى مصر على المتاحف فقط وانما يعيش الناس فى المتحف المفتوح بين جدران الماضى فما زالت شواهد هـــذه الحضـــارات المتتابعة ماثلة أمام أعين ساكنى مصر ٠ فالهرم وأبو الهـــول والكنائس القبطيـــة الأولى والمساجد الاسلاميـــة كلهـــا تحيط بـــكل من يعيش على أرض مصر ٠ هذه الحضارات تتنوع فى أشكالها وتصميماتها ووحداتها ومن المؤكد أنها تؤثر على الرؤية البصرية لساكنيها وخاصة على منتج الفن أو الفنان فرؤيتنا لأشكال هذه الحضـــارات قد انطبعت فى اذهاننا وظلت حتى الآن تعمل ويتضح مظهرها فى كل منتج للفن سواء فى عمل الفنـــان المصرى المعاصر أو فى عمـــل أطفالنا عندما يعبرون فى الفن ٠

ولدينا أدلة عديدة فى انتقال أشكال الفن وانحدار بعض وحداته منذ القدم وحتى يومنا هذا ـ فرسم العين تلك التى كانت تستخدم فى الفن المصرى القديم كتعويذه أو حجاب هى فى الأصـــل عين « حورس » التى اعتبرها المصريون القدماء أقوى وأهم تعويذه جنائزية فى مصر القديمة · هـذه العين كوحدة مرسومة أو مجســـدة فى شكل قلادة أو منحوته استعارها الاغريق وانتقلت الى الرومان وبلاد البحر الأبيض المتوسط والى شعوب أخـرى لتشـــكل جـزءا من دياناتهم ومعتقداتهم · لقد عرف أن عين حورس ترى كل الشرور فى العالم وهى عندما يحملها صاحبها كتعويذة أو حجاب تحميه من كل شر وحسد وتعطيه قوة ومقدرة للتغلب على اعدائه ـ ان رسم العين مازال حتى يومنا هذا يتناوله الكثيرون بل وقد انتقل تأثيره الى بعض الثقافات المعاصرة فعلى احدى أوجه الدولار الأمريكى يوجد خاتم رسم عليه هرم يتكون من ثلاثة عشر طابقا وفى قمة هذا الهرم يوجد رسم للعين يقصد بها عين « الله » هذا الهرم وهذه العين المرسومة ما هى الا انتقال لأشـكال الفن فى الحضـــارة المصرية القديمة الى تلك الثقـــافة المعاصرة وعلى تلك العملة الأمريكية التى لا يدرى ولا يلاحظها الأمريكيون فى تداولهم لها بينما هى فى أيديهم وفى جيوبهم وفى بيعهم وشرائهم (شكل ١٩) ·

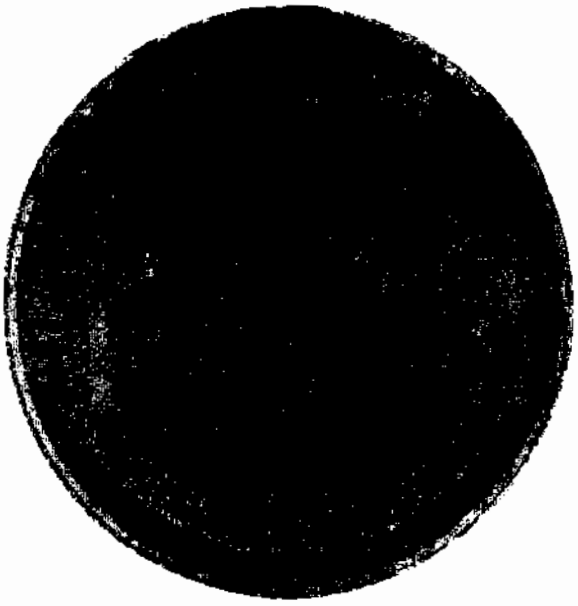

(شكل ١٩) ويمثل خاتما مطبوعا على أحـــد العمـــلات الأمـــريـكية من فئـــــة الدولار ٠

« وعين حورس » تصميم يتضـــمن العين اليمنى أو اليسرى يعلوها الحاجب ،وتحت العين يوجد رمز لألوهية الملك يتمثل فى رمز الذقن (شكل ٢٠) وكما أن الصيغة Fermula فى الفن تنتقل من عصر الى عصر ومن فن الى فن وحتى فى الفنان ذاته اثناء نموه وتطوره وكما انها فى انحدارها تضيع أجزاء منها أو يضاف اليها فاننا مازلنا حتى اليوم نشاهد رســـم العين على سيارات النقل والأجرة المنتشرة فى المدن والاقاليم المصرية نقول مازال رسم العين مستمر كوحدة وانما باضافة وحدة جديدة الى الوحدة القديمة، تلك الوحدة الجديدة تتمثل فى رسم السهم الذى عادة يخترق العين ٠ كما واننا نستطيع هنا أن نقول بأن انتقال هذه الوحدة فى الفن ارتبط أيضا بانتقال الثقافة كفكرة تنتقل من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر فرسم

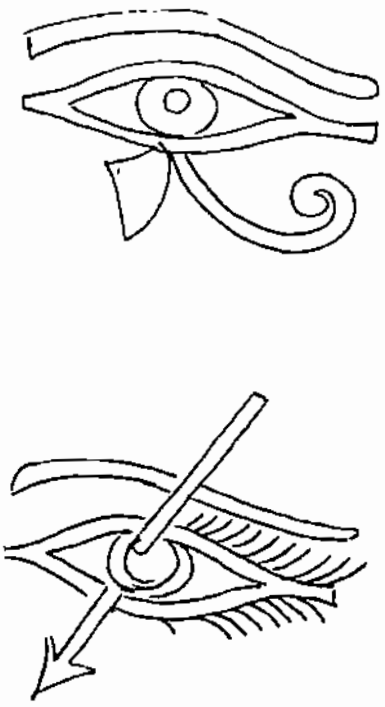

(شكل ٢٠) أعلى عين حورس وأسفل رمز للعين يخترقها سهم تشاهد عادة مرسومة على عربات النقل والأجرة المنتشرة على أرض مصر

العين بمعناه القديم كان لحماية الانسان من الحسد والعين الشريرة وهو مازال يعمل حتى الآن بهذا المعنى وخاصة فى مجال الفنون الشعبية التى تعد المصب الذى تتلاقى فيه الروافد على مدى تاريخ مصر ٠

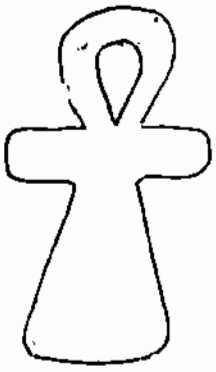

(شكل ٢١) « الانـكا » يطلق عليها عادة مفتاح الحياة

هناك مثال آخر لانتقال وحدات الفن مثال «الأنكا» ankh (شكل ٢١) وهى التى تعنى فى اللغة المصرية القديمة كلمة « الحيـاة » هـذه الانكا انحدرت من الحضارة المصرية القديمة واتخذتها وطوعتها المسيحية كمـا يقال فى عصورها الأولى لتصبح رمزا لها حتى تحولت الى شكل الصليب الحالى ـ وفى المتحف البريطانى الآن توجد تعويذة قبطية قديمة يرى فيها مريم العذراء جالسة تحت شجرة ممسكة فى احدى يديها تلك « الأنكا » مفتاح الحياة وفى اليد الأخرى صليب المسيحيين الارثوذكس Orthodox .

اليوم يوجد الكثير من الأشكال التى انحدرت من هذه الأنكا القديمة بل أن هناك الكثير من التعاويذ التى كانت تعد من الرموز الوثنية القديمه التى انحدرت وأصبحت توصف فيما بعـد بأنهـا مسيحية ومن المألوف والمعروف من هذه الأشكال « ايزيس » التى وصفت بأنهـا مريم العذراء والطفل حورس داخل زهرة اللوتس يرى ويعتقد أن رسمه هذا يمثل عيسى عليه السلام وهو طفل ٠

مصر أم الدنيا :

اذا كانت نظريات الثقافة المختلفة تطالعنا كل منها بوجهة نظر عن معنى الثقافة وانتقالها وخصائصها فتقول وجهة النظر فوق العضوية بأن الثقافة كينونه فريدة تشكل أفرادها وتعمل بقوانينها الخاصة فأن مصر فى تاريخها ما يشير الى هـذه الظاهرة وذلك المعنى للثقافة حيث تتجلى هذه الظاهرة فى أوقات معينة تجتاح مصر وهى الأوقات التى يبدوا فيها الناس وكل كائن وكل نبتة وكل جماد على أرض مصر يتحرك فى وحـدة وتآلف وتماسك الأمر الذى غالبا ما يحتار فى تحليله كل من يعيش خارج أرض مصر · ذلك أن ما يحدث يصبح من الأمور الصعبة التفسير علميا لأنه لا يخضع الى منطق الاستقراء والاحصاء ·

من تلك الظواهر ما يتراءى فى وجدان كل انسان يعيش على أرض مصر يستقر فى وجدانه أن مصر أم الدنيا يتضح ذلك فى رسوم أطفالنا عندما يتناولون التعبير عن مصر ليصورونها فى شكل الأم التى يحيط بها أبناؤها · هذا المعنى ينطلق أيضا من عامة الشعب من الرجل العادى الذى يحمل فى طياته الثقافة الحقيقية لمصر · رمز الأم هذا يتشكل فى أعين أبناؤها وتتحدد معالمه فى أنها أم ولادة تحمل خصومة أرض مصر فهى صنو لها باستمرارها فى العطاء كما أنها أيضا صنو للنيل بفيضانه وجلبه للخير والنماء كل عام ، وكذلك الشمس بشروقها وغروبها الأزلى ، يتفق الجميع على هذا المعنى وهذا الرمز ، فمصر فى أعين أبنائها بل وربما العالم أجمع أم الدنيا ·

اذا كانت مصر فى أعين أبنائها يرمز اليها بالأم فان أمريكا يرمز اليها من خلال الثقافة فيها بالعديد من الرموز تظهر هذه الرموز فى أشكال عديدة منها ما نشاهده من أبطال على شاشات التلفزيون والسينما وفى

(شكل ٢٢) « سوبرمان » وهو أحـد أبطال المسلسلات التلفزيونية الأمريكية ـ قادر على الطيران كما أن الرصاص لا يخترق جسده ٠

المجلات والصحف ووسائل الاعلام المختلفة ٠هؤلاء الأبطال أمثال سوبرمان Super Man (شكل ٢٢) ، والرجل العنكبوت Spider Man (شكل ٢٣)

(شكل ٢٣) « الرجل العنكبوت » أحد أبطال المسلسلات التليفزونية الأمريكية في الرسوم المتحركة وهو قادر على صيد فريسته والتسلق مستخدما خيوطه وشبكته للقبض عليها

والرجل الوطواط Bat Man (شكل ٢٤) ، والمرأه العجيبة Wander Woman (شكل ٢٥) وايزيس isis ويتضح من الاسم أنها تنحدر من الثقافة المصرية القديمة ومثال آخر لانتقال الثقافة من مكان الى مكان ومن حضارة الى أخرى

(شكل ٢٤) « الرجل الخفاش » أو الوطواط » يمتاز بالخفة والسرعة والقوة والتغلب على أعداء الحق ٠

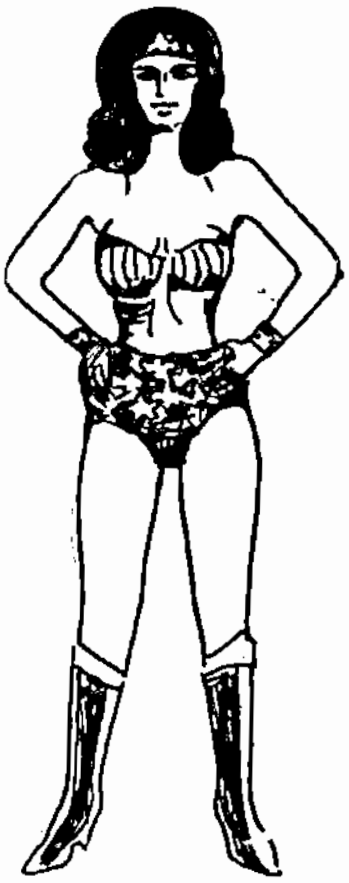

(شكل ٢٥) « المـرأة العجيبة قادرة على الطيران وثنى الحديد والتغلب على قوى الشر • ترتدى « مايوها » من قطعتين صمم عليهما العـلم الأمريكى من شرائط ونجوم

وكل هؤلاء الابطال تتجسد من خلالها شخصية امريكا كرمز أو معنى والكل يشترك فى أنه يدافع عن الحق ويحقق العدالة على الطريقة الأمريكية • يطلق على هؤلاء الأبطـال انهم ابطـــال التلفزيون والصـــور المتحركة TVS. Heros وهم فى الحقيقة يشكلون دورا هاما فى الرؤية الفنية

للأطفال فى أمريكا يظهر تأثيرهم بوضوح فيما ينتجه الأطفال من رسوم بل أننا نستطيع أن نقول أن تأثير أبطال التليفزيون والصورة المتحركة قد تحظى الولايات المتحدة ليجد صداه فى رسوم أطفالنا فيما نراه ويراه أطفالنا على شاشة التليفزيون من أفلام ترد الينا عن سوبر مان وميكى ماوس و Six Million Dollar Man وغيره من المجلات التى يتم نقلها عن الرسوم من المجلات الأمريكية والغربية المصورة ٠

اذا كانت مصر قد رمزنا اليها بالأم كما سبق وذكرنا فان أمريكا على ما يبدو قد تجلى رمزها ـ رغم تعدد مظاهر هذه الرموز كما ذكرنا فى أبطال التليفزيون والصور المتحركة والمجلات ـ فيما يعرض على شاشات التليفزيون حاليا من حلقات للمرأة العجيبة Wonder Woman والذى يقوم ببطولتها الممثلة الأمريكية Lyenda Carter ما هى الا رمز لشـــخصية أمريكا فتظهر على شاشات التليفزيون شـبه عاريه ترتدى « مايوها » من قطعتين صمم عليهما العلم الأمريكى من شرائط ونجوم ٠ والمرأة العجيبة تمثل أمريكا الى حد كبير فهى فتاة ممشوقة القوام مازالت تحتفظ بأنوثتها الفجـة قادرة على ثنى الحديد بأصابعها الرقيقة ، تطير وتحطم فى طريقها ما يعجز الرجال الأقوياء عن تحطيمه ٠

ينعكس رمز كل من مصر وأمريكا على كل من يسكنهما ففى مصر يصبح الرمز « أما » وفى أمريكا يصبح الرمز « فتاة » وشتان بين الأم وعلاقتهما ببنيها وبين علاقة الفتـاة بفـتاها ٠ ففى أمريكا حيث رمزها « الفتاة » يبدو الكل وكأنه يتســابق لارضائها ونيل خطوتها ، فالجميع يعمل لها بجهد خيالى عملا متواصلا وكأنها سحرتهم بما لديها من صفات أنثويه خلابه ٠ فزادت من توترهم وقلقهم وهى بجاذبيتها وأنوثتها لا ترحم فلا مجال للضعيف فى ملاحقتها أو ملاطفتها بل ان البقاء للأقوى الذى يعمل على أرضائها وتلبية رغباتها فحب الفتى للفتاة حب تزورة وهو مشحون دائما

بالتوتر ، فاذا ما أخطأ أو تحامل ربما أفقده ذلك حبهـــا ، وهى الأخرى تنظر الى الفتى الوسيم القادر ماديا وجسديا على أرضائها · فهى شابه مازالت فى ريعان شبابها ·

ومصر التى هى فى أعين ابنائها « أم » يختلف حينا لها عن حب الفتى لفتاته فحب الأم حب من نوع آخر ، حب يتسم بالروحانية والسمو ، حتى لو أخطأ الابن وتحامل على أمه فهى دائما تعفو وتصفح ويظل حبها كامنا لأبنائها فهى التى وهبتهم الحياة وهى التى تمنت وتتمنى لهم البقاء والسعادة · الأمر الذى يختلف عن حب الفتى لفتاته فهو عندما يتحامل أو يقسو عليها أو العكس فانها قد تجد راحتها مع فتى آخر ·

واذا كانت الثقافة تصور Concept يترسب فى حامليها من جيل الى جيل ، ينتقل من عصر الى عصر فان مصر فى سعيها وشوقها لتحقيق الوحدانية انما تطبق هذا المعنى · ولا شك فى أن الانسان المصرى كالخمر المعتق يكتنز مزيدا من الانسانية لانسانيته ولا أحد ينكر أثر ذلك العمق التاريخى على بنائه وتركيبه وطبيعة شخصيته ·

أما اذا كانت الثقافة تصور Concept وواقـــع Realist فان مصر أيضا كما ذكرنا بما تحتويه من أشكال حضاراتها مجسدا ومرثيا للعين وما تحمله هذه الأشكال من فكر وفلسفة فى بنائها وفى طريقة تجسيدها انما يعكس أن مصر ما هى الا معمل من معامل التاريخ والفكر وكل فرع من فروع المعرفة لما لها من تاريخ طويل ممتد عبر آلاف السنين ·

انتقال صيغة الفن :

يرى جمبرك Gombrich انه فى عالم الفن توجـد صيغ Farmulas فى البداية قد ابتكرها الفنانون ، جاء ثم أستخدمها من بعدهم عدد آخر

لا يحصى من الفنانين · وقد استخدموا هذه الصيغ اما كما هى أى ينقلها أو بعد أن يعيدوا وضعها وذلك من خلال تعديلها أو أن يقوموا بدمجها فى فى أجـزاء جديدة · ثم بتعديل كاف تصبح الصيغ أو الصيغة القديمـة جديدة ··· جديدة فى مظهرها ولكن جذورها فى نفس الوقت تمتد بعمق لتلك الصيغ الأولى السابقة ، أى أنها تمتد الى المنبت والأصل ·

انه موجز شكلى ثم تصحيح له ينطلق ذلك الموجز الشكلى فى البداية من مكان الى مكان ، ومن فترة الى أخرى ومن فن الى فن ومن فنان الى فنان · وكما يقول Gombrich ان بعض أشكال الفن توجد فى كل مكان على وجه الأرض ولكن قصة الفن كنضال مستمر لم تبدأ فقط من كهوف شمال فرنسا أو بين هنود شمال أمريكا ، انه لا يوجد اتصال مباشر بين هذه البدايات الغريبة بأيامنا هذه ، ولكن هناك تقاليد مباشرة قد انحدرت من أستاذ لتلميذه ، ومن تلميذ لمعجب أو مقلد ، حيث تربط فننا الحالى ، أى منزل ، أى ملصق ، أو اعلان بفن وادى النيل خمسة آلاف عام مضت ، ولذا فنحن نرى أن أساتذة اليونان قد تعلموا فى مدرســـة المصريين ، وما نحن الا تلاميذ اليونان ولهـذا فان فنون مصر بالنسبة لنا ذات أهمية هائلة وعظيمة » ·

ان الفن يتغذى على الفن فينتقل فى الثقافة الواحدة كما أنه ينتقل من ثقافة الى أخرى وعلى ما يبدو أنه لا يوجد فن الا من خلال «طريقة» Mannerism أو بمعنى آخـر لا يوجد فن ينمو الا من خـلال موجزات شكلية موروثه · ولعلنا نشير هنـا كيف أن الفنـان الانجليزى كونستيل Constable قام بنقل وتقليد مجموعة من رسوم السحب للرسام كوزينز Alexxander Cozens ذلك الرسام الذى كان يعد رســـاما للمناظر الطبيعية فى القرن الثامن عشر · قام كونستبل بنقل هذه السحب من كتـــاب كان قد أعـــده كوزينز لتلاميذه وتستطيع أن تدرك كيف أن

(شـكل ٢٦) كوزينز

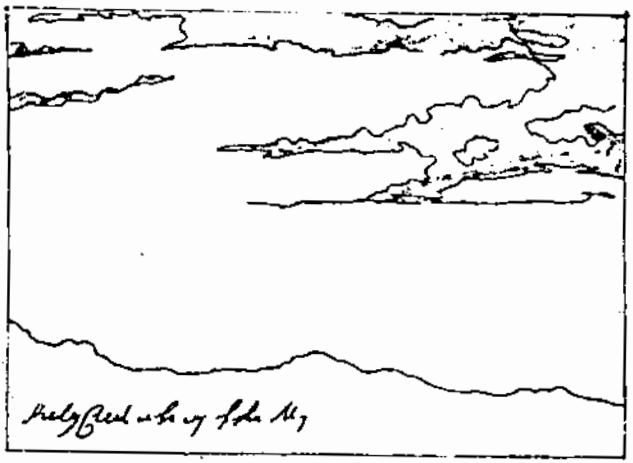

(شـكل ٢٧) كونسـتبل

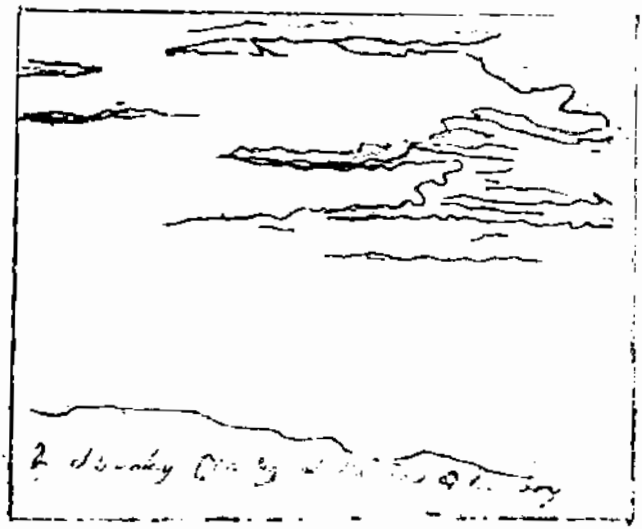

(شكل ٢٦ ، ٢٧) يتضح التشابه فيهما الى حـــد كبير ذلك التشابه فى طريقة · كوزينز واثرها على رسوم كونستبل

كونستبل قد قام بنقل رسوم السحب وكيف أن هناك صلة وثيقة بين رسم سحب كوزينز وسحبه التى رسمها فى لوحاته (شكل ٢٦ ، ٢٧) ٠

وتتعدد الآراء حول منابع الرؤية فى الفن وتتعدد الأسئلة فمثلا هل الفن ينبع من الأشكال المرئية للعين والتى تصطدم بها فى أشكال الثقافة وما تحتويه من وحدات وألوان وأحجام ؟ أم أنها البيئة ؟ أم أن نظام التعليم هو المنبع الوحيد والمؤثر فى الرؤية الفنية ، وعلى ما يبدوا أن الثقافة لها تأثير كبير على الرؤية الفنية بما تحتويه من أشكال مرئية للعين ففى أحد الأبحاث التى تسعى جاهدة لانشاء نظرية جديدة عن كيف يرسم الأطفال فى فترة المراهقة أو ما قبلها ، أو ربما كيف نرسم جميعا ٠ يوضح هـذا البحث أن الرسـوم التى ينتجهـا الراشـدون أو البالغون أو ما قبل مرحلة البلوغ انما تنحدر من فن العامة أو المتداول بين الناس ومن فنون كفن الاعلام ، من المجلات ، والصحف ، والسينما ، والتلفزيون ٠ وكذلك من أعمال الأطفـال الآخرين من الأقران أو من الاخـوة أو من الأطفـال الأكبر سنا ٠ وهذه النظرية ترى أن منبع الرؤية الفنية للأطفال الأكبر سنا لا يتأتى من الملاحظة الدقيقة المباشرة للطبيعة وانما تبنى رسومهم على نوع من التفاعل بين الصورة الممثلة أو الرسم الممثل من ناحية ، وتذكر لصورة ذهنية سابقة من ناحية أخرى ٠ يطالعنا البحث فى بدايته بعرض لأقوال مأثورة قد لعبت دورا هاما فى تشكيل مفاهيمنا عن التربية الفنية وفن الطفل منها « لا نفرض تصوراتك على أى طفل ، لا تسمح أبدا باعطاء أو عرض عمل لطفل كمثال لطفل آخر ، لا تدع الطفل ينقل أو يقلد أى شىء » ٠ مشيرا بعرضه لهذه الأقوال الى أن المربين عن طريق الفن قد فشلوا فى رؤية التأثير القوى للاعلان والفوتغرافيا على رسـوم الأطفال وكيف انهم تحت اعتقاد يصل عمره الى مائة عام يجعلون الأطفال ينتجون فنا كما يتصوره المربون عن فنهم ـ وكما يقول Efland أن فن الطفل قد أصبح ما نراه نحن البالغين وخاصـة وبالتحديد كما وصفه مدرسى

التربية الفنيه • اننا نشجع تلك الأشياء التى تناسب خيالنا أو تصوراتنا نحن عن (الطبيعى) ، أو (الابتكار) أو (التلقائية) فى فن الطفل فى حين اننا نغمض أعيننا عن الكثير من الرسوم المنقول منها والذى يمكن أن يكشف عن الطبيعة الحقيقية فى تعلم الفن •

تفسير عملية الرسم :

ان هناك نظريات عديدة تحاول أن تشرح طبيعة وعملية الرسم اثنان من أهم هذه النظريات تأثيرا وشيوعا هما لدالى هارس Dale Harris, 1963 ورودولف أرنهيم Rodelph Arnheim, 1974 يؤكدان أن الرسم ما هو الا تمثيل للواقع • فيرى هارس أن السلوك فى الرسم ما هو الا مرآة للنمو المعرفى والنضج فى الذكاء وهو يرى أن الحالة تجاه نمو الرسم ما هى الا زيادة الدرجة فى التوافق بين موضوعات العالم الخارجى والقدرة على التقاط وتصوير هذه الموضاعات •

ومن الجانب الآخر فان أرنهايم حاول تفسير هذه العملية فهى في نظره حركة اكتشاف من ملاحظة الموضوعات فى العالم (الطبيعة) واكتشاف معادلات ذهنية مجردة لهذه الموضوعات ، ثم اعادة انتاج هذه المعادلات كأشكال مطبوعة أو محفورة ممثلة للصورة الأصلية لهذا الموضوع (Arnheim, 1974, PP. 168) .

أما البحث الذى نواصل عرضه هنا فيرى أن كلا من هارس وأرنهايم بل ومعظم الآراء أو الأفكار عن الرسم دائما تبدأ بالموضوعات الحقيقية والواقعية وتعتبر أن الرسم ما هو الا تمثيلات لتلك الموضوعات الحقيقية • وعلى هذا يرى البحث أن هذه الفكرة ليست صحيحة ولم توجه التوجيه الصحيح نحو حقيقة خطوات الرسم ولتحقيق ذلك بدأ الافتراض بأن رسم

أى موضـــوع ليس مطلقا تمثيلا للواقع ولكنه علامه وقد استخدم البحث تصوير مورس بكهام Morise Pecham عن تصنيفات العـــلامة فالسحابة « مثلا تسمى علامة طبيعية natural Sign بينما رسم للسحابة وكلمة « سحابة » كلاهما علامات صناعية Artifical Sign

ان عملية الرســـم تلك العملية المعقدة والسلوك وراء بناء هـــذه العلامات المطبوعة ما هو الا « بروجرام » Program وكما يذكر أحد السيكلوجين أن الابحاث النفسية الحديثة قد جعلت الأمر واضحا فى أن كل عملية سلوكية ما هى الا نظام وظيفى معقد قد بنى على خطة أو برنامج للعمل بحيث يقود أو يؤدى الى هدف معين ومحدد · وحتى تتأكد نظرية البحث من خلال ذلك الافتراض وهو أن رسم أى موضوع ما هو الا برنامج أو بروجرام مطبوع فى الذهن · استضيف ١٤٧ طالبا من المرحلة الثانوية والجامعيـــة تم اختبارهم فردا فردا · سئلوا عما اذا كانوا قد انتجوا رسوما فى مرحلة طفولتهم وعما اذا كانت هذه الرسوم مازالت توجد لديهم حتى يتم تحليلها · بالاضافة الى ذلك سئلوا أن يقوم كل منهم برسم أى موضوع من الذاكرة (كالانســـان أو الحيـــوان أو النبات أو الآلات أو الاثاث ·· الخ) · وفى بعض الأحيان طلب منهم أن يرسموا الحيوان فى أوضاع مختلفة وأن يرسموا ايضا تلك الأشياء التى يعتبرونها محببة لهم · وعندما تمت هذه الرسوم سئل كل منهم (لماذا قمت بالرسم هكذا ؟ ··· منذ متى وأنت ترسم بهذه الطريقة ؟ هل هذا الرسم قد نبع من ذاتك ؟ هل هو منقول أو تقليد لشىء آخر ؟ هل هناك أحد قد علمك رسمه بهـذا الشكل ؟ ـ كما انهم سئلوا ايضا أن يدلوا برأيهم فى رســـومهم تبين من تحليل النتائج أنه أمكن ارجاع كل شكل مرســـوم من خلال أقوالهم الى بعض المنابع المحفورة والمطبوعة فى أذهانهم ، هذه المنابع متنوعة وهى تتدرج فى أشكال استعيرت من رسوم للوالدين والأخوة والاخوات الأكبر سنا ومن الاقران الى أشكال من فن العامة وخاصة من رسوم الكاريكاتير

والصـــور المتحركة والســـينما والتلفزيون وكذلك من فن الاعـــلام والفوتغرافيا ٠

ويثير البحث سؤالا وهو ما الذى يدفع الأطفال لأن يستعيروا أشكالا بدلا من ابتكار أشـكال خاصـــة بهم ؟ ويرجع ذلك الى أن العملية تتعلق بالادراك البصرى وكذلك حقيقة أن كل البرامج التى تطبقها فى حياتنـــا اليومية لم تتحول بعد لتصبح برامج لانتاج الرسم ٠ فنحن نعرف مثلا عن الجسم الانسانى من خلال رؤيتنا البصرية للعديد من الأوضاع ٠ واقفا ، منحنيا ، جالسا ٠٠ وكذلك من أشكاله المتباينة من ذكر أو أنثى ، عجوزاً ، أو شـــابا قصيرا أو طـويلا ٠٠ الخ ٠ الحقيقة أنه ليس فى استطاعتنـا استدعاء كل ذاكرتنا عن الجسم الانســانى مرة واحـدة ، كما أن هـــذه الذاكرة ليست محددة وواضحة تماما فى أذهاننا والصور الذهنية المطبوعة التى تخدمنا وتعيننا تماما هى التى قد انطبعت فى أذهاننا من خلال رؤيتنا السابقة لرسوم أخرى عن الجذع الانسانى مثلا ٠ لماذا ؟ ببساطة لأنها قد ترجمت لتصبح هيئة ذات بعدين من الخطوط والأشكال ، هذه العلامات والهيئات المجهزة والمقدمة تعتبر بسيطة وسهلة كما أنها مجردة أكثر من علاقاتها بأشكالها الطبيعية فالصورة أو الهيئة المطبوعة قد تجمدت فى الزمان والمكان ، ولكننا قد نتساءل ما الذى يحدث أثناء تأملنا لموضوع طبيعى فى محاولة لرسمه ؟ هل نحن فى هذه الحالة لسنا مرتكزين على ادراكنا البصرى الحالى ؟ أم أننا نرتكز على تذكر سابق لرؤيته ؟ يجيب البحث الذى نعرضه هنا بالنفى ويرى أن رسم أى موضوع يتم فى الحقيقة من خلال تعديلات جانبية فى البرنامج العام لرسم هذا الموضوع فنحن عادة نبدأ بما نعرفه أولا وبما قد انطبع فى أذهاننا عن هذا الموضوع ٠ أى ما نختزن له من رؤية ، ثم يأتى بعد ذلك ما رأيناه من رســوم لأفراد آخرين ٠

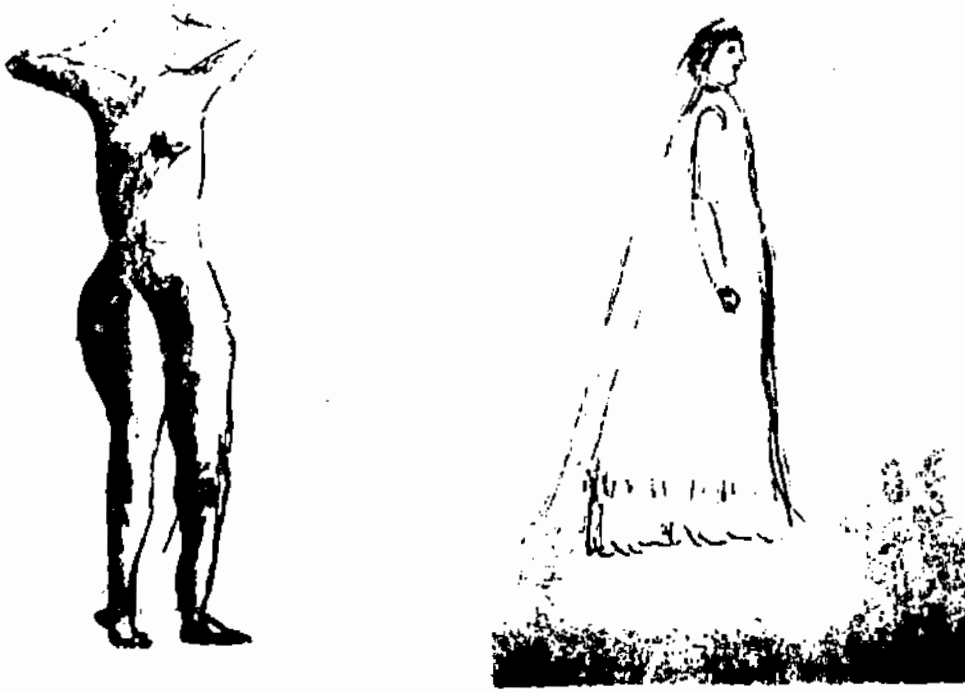

(شـــكل ٢٨)

برنامج لكل موضوع ترسمه :

ترى نظرية هذا البحث أن الأفراد يستخدمون برامجا منفصلة لأى موضوع يرسمونه · فهناك مثلا برامج لرسم انسان أو حصان أو طائر ·· وهكذا ·· وتوجد برامج سهلة يكون الفرد فيها منطلقا كما أن هناك البعض الآخر من البرامج يكون الفرد فيها فقيرا متعثرا ، وهذا يرجع الى قدرة الذاكرة على استدعاء كل برنامج بوضوح وجلاء ، وعلى سبيل المثال فقد لوحظ أن أحد الطلاب الجامعين قام برسم جذع مظلل لأمرأة بنوع من الاحساس بالثقة والتمكن فى أوضاع متعددة ــ وهو الذى يتعلم من وقت قريب التدريب على رسم الموديل الحى ــ ولكنه عندما حاول أن يرى احدى محاولاته بعد أن طلب منه أن يقوم برسم لأمرأة بملابسها ــ سأل نفسه فى فزع واستغراب «ما الذى أعادنى الى السنة الخامسة الابتدائية؟ (شكل٢٨)

(شكل ٢٩) قام برسم هذا الشكل أحد الأشخاص الذين يرسمون الجسم الانسانى بمهارة فائقة وعندما سئل لكى يرسم هذا الحصان ظهرت أرجل الحصان الأمامية وكأنها أذرع ادمية ٠

ترى هذه النظرية أيضا أنه اذا كانت هناك صعوبة لايجاد برنامج معين يستعين به الفرد أثناء رسمه لموضوع معين فانه من الممكن أن يستعير برنامج آخر وبشىء من التعديل يستخدمه فى رسمه لموضوعه فمثلا عندما سئل أحد الأفراد الذين يرسمون الجسم الانسانى بمهارة فائقة أن يرسم حصانا قام برسمه ولكن كانت مقدمته وكأنها قد أستوحيت من شكل الجسم الانسانى كانت أرجل الحصان الأمامية تشبه الى حد كبير الأذرع الآدمية ٠ (شكل ٢٩) ٠

وما تعرضه هذه النظرية من نتائج انما يحتاج مزيدا من البحث والدراسة فرسمنا لأى موضوع كما هو واضح من خلال هذه النظرية انما

ينبع ويتم من خلال مخزون لأشكال محفورة ومطبوعة فى أذهاننا ، واتضح ذلك عندما سؤل الطلاب اثناء البحث كى يرسموا من ذاكرتهم اى موضوعات تتعلق بالانسان أو الحيوان أو الجماد أو أن يرسموا ما هو محبب لديهم وقد عكس هذا لمن قاموا باجراء البحث مصدر هذه الرسوم حتى قبل أن يسألوا عن مصدرها من أقبال الطلاب أنفسهم ٠

ان العمل الفنى المتداول والمعروف غالبا ما يتجمد فى الزمان والمكان وينطبع عادة فى أذهاننا ومن الممكن استدعاؤه دون أى جهد كأن نغمض أعيننا لمحاولة جمع شتاته ٠ ولقد قام بعض الباحثين بعمل دراسات حول كيفية انتقال الرموز من داخل العمل الفنى الواحد ، وتعرض هنا مثالا لجزء من هذه الدراسات ٠

فقد قاموا بسؤال أحد أساتذة الفن على مستوى الجامعة يبلغ من العمر ٣٩ عاما وهو متمكن ومتخصص فى رسم الوجوه (البورترية) والأشخاص وهو الذى تتلمذ على أيدى أساتذة مشهود لهم بالقدرة والكفاءة ، الأمر الذى نستطيع أن نقول بأن هذا الفنان متمكن من دراسته الاكاديمية غاية التمكن ٠

سئل الفنان أن يرسم صورة شخصية (بورترية) من الذاكرة لأحد الأشخاص المعروفين له تماما وكان يدعى « جون » وهو أحد المسنين الذين يعملون مع الفنان واحد الذين يحتكون بالفنان عن قرب اثناء العمل اليومى ٠ وبعد أن انتهى الفنان من اخراج رسم وجه « جون » اتضح من الرسم أن الوجه لا يحمل تفاصيل دقيقة أو بمعنى آخر أن الوجه يظهر فى صورة عامة دون تفاصيل محددة ، هذا الرسم لم يكن على ما يبدو مقنعا للفنان فلم يكن يتوقع أن يكون بهذا الشكل ٠ وقد استغرق العمل فى هذا الوجه مدة لا تتجاوز العشر دقائق ٠ وهذه تعليقات الفنان اثناء قيامه

بعملية الرسم من الذاكرة لوجه « جون » الذى يعرفه تمام المعرفة : « أولا وقبل كل شىء اننى أفكر فى تلك الرسوم التى يستخدمها البوليس ـ تلك الرسوم التى يستخدمونها عادة للوصول الى تحديد شخصية المشتبه فيهم أو المطلوب تحديد ملامحهم من مجرد وصفهم ... اننى أحاول أن اتذكر وجه « جون » .. على ما يبدو أن هناك بعضا من الشعر الأبيض .. اننى أجد نفسى أرسم فما كالذى أرسمه دائما أى كالذى تعودت رسمه ، أظننى لم انظر الى فم « جون » من قبل .. اننى اتذكر عيونه أكثر .. أتذكر شعره الأبيض .. لعلنى سوف أنظر اليه المرة القادمة بامعان .

وبعد أن انتهى الفنان من رسم وجه « جون » مباشرة سئل أن يقوم برسم لوجة رمبرانت Rembrandt وهو الفنان الهولاندى المعروف هذه المرة بدلا من أن يحاول الفنان أن يجمع أو يرتب فى ذاكرته الملامح المتناثرة التى تشكل طبيعة الوجه كما حدث فى رسمه « لجون » أو أن يبحث عن مدخل لكى يبدأ رسم وجه رمبرانت فى أقل من خمس دقائق معلقا اثناء قيامه بالرسم بهذه الكلمات ؟ « أن لدى فى ذهنى صورة معينة بذاتها عن وجه رمبرانت اننى أشعر بأنى أمتلك ثلاثة أرباع ملامح وجهه فى ذهنى فلقد قضيت ساعات فى التطلع الى وجهه من قبل .

ولعلنا نستطيع أن نجمل انعكاسات الفنان اثناء قيامه برسم الوجهين ، وجه « جون » ذلك الذى يعرفه ويعمل معه ووجه رمبرانت ذلك الفنان المشهور كما يلى :

فى حالة رسم « جون » أحاول أن اغمض عينى محاولا أن أبصره ... هانذا اقابله فى الممر .. اننى أحاول أن أجمده ولو للحظة حتى أتمكن من أن ادرك ملامح وجهه تماما . اننى أحاول أن أرسم هذه الرؤية فى ذاكرتى .

انه كما يبدو لى نوع من التشبث بتلك الرؤية وامتلاكها ومحاولة القبض عليها أما رســـم وجه رمبرانت فالبداية تختلف اننى أملك ولدى صنعة Technique فى ذهنى كما اننى أيضا امتلك ولدى رؤية وتصـــور والصنعة والرؤية متطابقان حتى أننى أستطيع تحديد اماكن الظل والنور على الذقن · انها مألوفة لدى تماما ·